إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات

الأساطير: جمعُ الإسطار والأُسطار والأُسطور والأُسطير، ومعناه ما يُسطَر أي يُكتب، وتُستعمل في الحديث لا نظامَ له. (الأقرب)

الأسطورة هي ما يسمى (STORY) بالإنجليزية، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الأسبانية ومنها إلى الإنجليزية. فقوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني بالنظر إلى معاني الأساطير أن هؤلاء المعتدين الآثمين يقولون عن الآيات المتلوّة عليهم إنها أقوال كُتبت ونُقلت عن الأولين، أو أنها كلام عن الأولين لا نظام فيه ولا ربط، أو أنها قصص الأولين.

التفسير: لقد تكررت تهمة (أساطير الأولين) في تسعة أماكن في القرآن الكريم كالتالي:

أولاً: ذكر الله تعالى في سورة الأنعام أهل الكتاب أولاً، ثم قال عن الكفار ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآية:٢٦).

ثانيا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال: ٣٢)

ثالثا: قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(النحل:٢٥-٢٦)

رابعا: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون:٨٣-٨٤)

خامسا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾(الفرقان:٥-٦)

سادسا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(النمل:٦٨-٦٩)

سابعا: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الأحقاف:١٨)

ثامنا: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم:١٦-١٧)

وأخيرا قال الله في هذه الآية قيد التفسير: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

وبالنظر في هذه الآيات نجد أن آية ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ في سورة الأنعام جاءت في معرض الحديث عن النبوءات السابقة.. أي عندما تعرض عليهم نبوءات الصحف السابقة والآيات الجديدة التي أتى بها محمد ﷺ يقولون إنها ليست إلا أقوال السابقين التي تعاد أمامنا. كأنهم يقولون إنها ليست نبوءات، وإنما هي عبارات من الكتب القديمة تعرض علينا خداعًا لتحقيق غرض معين، فيقال لنا مثلا: انظروا إلى ما قال موسى لفرعون، ثم فكرّوا في مصير فرعون؛ فيريد محمدا أن يخوفنا بأن فرعون حارب موسى فهلك، ولو حاربتموني هلكتم أيضًا، مع أنه شتان بين موسى وبين محمد. أو تُقرأ علينا قصة إبراهيم مثلاً ويقال لنا: ألا ترون أن أعداءه قد دُمِّروا، وكذلك تدمرون، مع أنه شتان بين إبراهيم وبين محمد.

وقد رد الله عليهم بأنهم سيقولون عند ظهور النتائج النهائية ليتنا لم نعارض محمدًا ﷺ. ومثاله ما وقع يوم فتح مكة. لقد ذكرتُ مرارًا قصة أبناء صناديد العرب الذين حضروا مجلس عمر في عهده. فبينما هم في ذلك أخذ صحابة الرسول ﷺ يحضرون مجلسه واحدًا تلو الآخر وكانوا في الماضي عبيدا لهم أو لآبائهم الذين كانوا يسخرونهم في أنواع الأعمال الشاقة. وكلما جاء صحابي طلب عمرُ من هؤلاء الرؤساء إفساح المجال له، فلم يزالوا يتأخرون في المجلس في كل مرة حتى وصلوا إلى مكان الأحذية، ثم خرجوا من المجلس ساخطين. وقالوا فيما بينهم: يا لها من إهانة لقيناها اليوم. فقال

أحد هؤلاء الفتية وكان أكثرهم ذكاء: هل فكّرتم في سبب هذه الإهانة؟ إنما سببها آباؤنا، فلو أنهم لم يعارضوا النبي ﷺ، ولو أن هؤلاء العبيد لم يضحوا في سبيل الإسلام، لما لقينا هذا الذل والهوان، وما نال هؤلاء هذا العز اليوم. هذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى في هذه الآية من سورة الأنعام، إذ أخبر أن هؤلاء المكيين سيتمنون يومئذ لو لم يعارضوا، ولكن لن يغني أسفهم عنهم شيئا.

أما سورة الأنفال فلا تتحدث عن النبوءات السابقة، بل تقارن بين التعاليم، ولذلك قال الكافرون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.. أي ليس هذا القرآن إلا نقلاً وتقليدًا للكتب السابقة، ولو شئنا لقلنا مثله.

أما سورة النحل فهي أيضا تتحدث عن هذا الموضوع نفسه أي أن محمدًا يقلدّ الأولين، إذ ورد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.. فينبههم الله تعالى ويقول لنفترض أن محمدا يقلد الأولين، ولكنه يقلد الأخيار، وأنتم تقلّدون الأشرار، إذ قال الله تعالى بعدها بآية ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾(النحل:٢٧)؛ فكأن الله تعالى يقول لهم: قولوا إن شئتم إن محمدا رسول الله يقلد موسى ويقلد إبراهيم أو أي نبي آخر، فقولكم هذا يدل على أنه يقلد الأخيار، ولكن هل فكرتم فيما تفعلون؟ إنما تفعلون ما فعل فرعونُ عدوُّ موسى وما فعل أعداءُ عيسى وأعداءُ نوح، وقد خسر هؤلاء الأولون نتيجة معارضتهم لأنبيائهم، وكذلك ستخسرون لأنكم تقلدونهم. أما محمد فلا شك أن مصيره سيكون مثل مصير الأخيار المقبولين الأولين الذين تتهمونه بتقليدهم.

علمًا أن هذه الآيات من سورة النحل تتحدث عن القيامة والتوحيد أيضًا، حيث قال الله تعالى لهم يمكنكم أن تسموا التوحيد الذي يعلّمه محمد رسول الله تقليدًا للأولين، إلا أنه نفس التعليم الذي أتى به موسى وعيسى، وحيث إنكم تعارضون هذا التعليم، فليس مثلكم إلا كمثل الفريسيين والكتبة ونمرود وشدّاد، والمعروف أن المقلّد يكون مع من يقلّده، فعلامَ تفرحون إذًا؟

أما سورة المؤمنون فهي تتحدث عن القيامة الأخروية كما يدل عليه السياق، حيث قال الكافرون للنبي ﷺ كان الأولون أيضًا يتحدثون عن القيامة ولكنها لم تقم بعد،

فكيف تقوم بقولك هذا؟ فردّ الله عليهم أن الله قادر على كل شيء. فقولكم إن القيامة لم تقم بعد يمكن أن يفسَّر بمفهومين، أوّلهما: أن الله ليس قادرًا أن يأتي بالقيامة، وثانيهما لِمَ لم تأت القيامة بعد؟ والجواب أن أفعال الله تعالى هي أمام أعينكم، ولا يحق لكم بعد رؤيتها أن تقولوا أن القيامة لن تأتي. أما سؤالكم لِمَ لم تقم القيامة بعد، فجوابه أنها ستأتي في ميعادها. لماذا تقولون لِمَ لم تأت بعد؟ سيتحقق هذا الأمر أيضًا فتقوم في وقتها.

وهذه الآية من سورة المؤمنون دليل أيضًا على أن في القرآن الكريم وعدًا بالقيامة التي تكون بعد الحياة الدنيا، وهكذا تصبح هذه الآية ردًا على الذين يزعمون أن القرآن لا يذكر إلا القيامة التي تقوم في هذه الدنيا فقط. صحيح أن في القرآن وعدًا بالقيامة الدنيوية أيضًا، ولكن الكفار قالوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، مما يعني أنهم كانوا يتحدثون عن آبائهم أيضا، وهذا يعني أنهم كان يتحدثون عن القيامة الأخروية، والقرآن لم يخطِّئهم ولم يقل لهم إننا لم نَعِدْكم بالقيامة الكبرى، بل اعترف، من جهة، بصحة اعتراضهم حيث قال: نعم هناك وعد بالقيامة، ومن جهة أخرى فند اعتراضهم قائلا إن الله ذو قدرة عظيمة وسيحقق هذا الوعد أيضًا في وقته المناسب.

أما الآيات من سورة الفرقان فهي تتحدث عن الأحكام، حيث اتهم الكافرون رسول الله ﷺ بسرقة شرائع السابقين، فردّ الله عليهم أن القرآن يكشف غوامض الكون وغوامض الفطرة، وقد بين أسرار السماء وأسرار الأرض، أي قد فصّل معاملة الله مع العباد ومعاملة العباد مع الله تعالى كل التفصيل، وأخبر كيف يتصرف ذوو الطبائع المختلفة في شتى المواقف؛ فالشريعة التي تبين أسرار فطرة الناس جميعًا، سواء كانوا عربًا أو هنودًا أو أمريكان أو أوروبيين، والتي تسدّ كل حاجة للطبائع الإنسانية على اختلاف أنواعها وتبيّن كل ما يعامل الله به عباده، سواء أكان مذكورا في الصحف السابقة أم لا.. أقول كيف تعتبرون مثل هذه الشريعة نقلاً وسرقةً للصحف السابقة؟ وأية شريعة تتصف بكل هذه المزايا؟ إن الصحف السابقة كانت محدودة الهدى ومختصة الزمان، ثم كانت مختصة بمناطق

محدودة لا للعالم كله، ولذلك فلم تراعِ تلك الصحف كل أنواع الطبائع البشرية. لقد اهتمت التوراة بالشعب اليهودي فقط، وقد غضّت الطرف عن باقي الشعوب، كما لم تراعِ العصور كلها، أما القرآن الكريم فهو للأمم كلها وللأزمنة جميعها؛ إنه لليهود والنصارى والمسلمين والهندوس والأوروبيين والصينيين واليابانيين وللمتحضرين وغير المتحضرين، فما من قوم إلا وجاء القرآن لهم بالهدى، وليس هنالك زمان يمكن فيه إنكار ضرورة القرآن؛ فلذلك قد أنزل الله تعالى فيه أحكامًا جامعة جدًّا تناسب كل أنواع الفطرة والطبع، وهي صالحة للعمل بها في كل عصر إلى يوم القيامة؛ فكيف يقال، والحال هذه، أن القرآن نقْل وسرقة من الكتب السابقة؟

أما سورة النمل فقال الله فيها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآيتان:٦٨-٦٩). ومضمونها يماثل ما ورد في سورة المؤمنون في قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآيات:٨٣-٨٤)، والفرق البسيط هو أن الله لم يرفض في سورة النمل اعتراضهم كلية، بل قال فيها ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(الآية:٧٠). فالجواب هو نفس ما أجيب به في سورة المؤمنون، حيث اعتبر اعتراضهم صحيحا، ثم ردّ عليهم أن اليوم الآخر والقيامة الدنيوية متلازمان، فإذا قامت القيامة الدنيوية فتأكدوا أن قيامة الآخرة آتية أيضا.

أما سورة الأحقاف فقد ورد فيها ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الآية:١٨). هنا أيضا أخبر أن الكفار أنكروا القيامةَ الكبرى قائلين: إن الأولين أيضا كانوا يقولون إن القيامة آتية، وأنت أيضًا تقول مثل قولهم.

أما سورة القلم ففيها ذكر إنكار الكفار للنبوءات، حيث قالوا إن محمدا (ﷺ) يخوّفنا بذكر قصص الأنبياء السابقين، فيرد الله تعالى أنه إذا جاءكم العذاب فلن تقولوا أنه يخوّفنا بذكر قصص الأولين، بل ستعلمون أنها كانت أنباء صادقة. فما دامت هذه أنباء حقيقية فكيف تقولون أن القرآن نقْل وسرقة للكتب السابقة؟ عندما تُرغَم أنوفكم بالعار، ويترل عليكم عذاب السماء، وتهانون في الدنيا، ويصبح الإسلام غالبًا، عندها ستعلمون أأساطير الأولين هي أم نبوءات صادقة.

والآية التاسعة قد سبقتْ هذه الآيةَ قيد التفسير من سورة المطففين. وإنها تتحدث عن الأمور الثلاثة: الشرائع والبعث القريب والبعث البعيد، حيث ينكر هؤلاء الكافرون البعث القريب والبعث البعيد قائلين إنها حكايات بالية، أو أن الأولين أيضًا قد خوّفوا من القيامة كما يخوّف هذا، ولكن لم يقم أي شيء. والحق أن هذه الأمور كلها ستتحقق، فيقع البعث القريب والبعث البعيد، كما سيظهر بطلان تهمة التقليد؛ لأن الكفار أيضا مقلدون للكفار الأولين، فقال الله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، أي لو قارنتَ بين أحوال أعداء الأنبياء السابقين وأحوال الكافرين بمحمد لوجدتَ بينهما تطابقا تاما بحيث يبدو أن الكتب السابقة إنما سجلت أحوال الكافرين بمحمد ﷺ؛ فإن ما يفعله هؤلاء الفجار توجد أمثلته حتمًا في كتب الأولين. فثبت أنهم أيضا يقلدون، ولكنهم يقلدون أهل ﴿سجين﴾، أما محمد رسول الله ﷺ فهو أيضًا يقلد، ولكنه يقلد أهل ﴿عليين﴾؛ فلو فكروا في أعماله وأحواله لوجدوها تماثل أحوال وأعمال موسى وعيسى وإبراهيم ونوح وغيرهم من الأنبياء. والبديهي أن الصالح يقلد الصالح، والطالح يقلد الطالح؛ وما دام الأمر كذلك فلا قيمة لهذا الاعتراض. وكأن الله تعالى يقول إن التقليد أيضا ليس سهلا، وإلا كيف تمكن محمد من تقليد موسى وعيسى وإبراهيم ونوح، ولم توفّقوا لتقليدهم. فإذا كنتم تتهمونه بالتقليد فلماذا لا تقلدون هؤلاء الأنبياء؟ فتقليدكم لأهل سِجّين وتقليد محمد لأهل عِلّيين في حد ذاته دليل على فضله، وليس مدعاة للطعن فيه. وقد سبق رد آخر على هذا الاعتراض في سورة الفرقان.

لقد تبين مما سبق أن الكفار قد أثاروا اعتراض ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ في ثلاث مناسبات: إحداها عند إنكارهم البعث البعيد، أعني أنهم كلما ذُكِّروا بيوم القيامة قالوا إن الأولين أيضا خوّفوا منها كذبًا وزورًا وأنت أيضا تخوِّفنا منها مثلهم؛ لقد بطلت أقاويل الأولين وأنت أيضا كذبتَ، إذ لم تقُم القيامة بعد.

والمناسبة الثانية التي أثار فيها الكفار اعتراض ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ هي الحديث عن البعث القريب.. أي الحديث عن رقي الإسلام وغلبته وهلاك الكفر. ولكنهم في هذه المرة لا يُكذِّبون الأولين، بل يقولون يا محمد إنك تطبِّق عليك أمثلة حياة الصالحين الأولين لتخويف الناس، ولكن أمرك مختلف عنهم، إذ كانوا صادقين وأنت كذاب، والعياذ بالله.

وقولهم هذا يماثل ما يقول لنا غير الأحمديين اليوم، إذ يقولون لنا عند النقاش: لماذا تذكرون عيسى؟ ولماذا تذكرون أمثلة من حياة محمد رسول الله ﷺ عند الحديث عن صدق مؤسس جماعتكم؟ ما علاقتكم بهؤلاء الأنبياء الصادقين حتى تذكروا أمثلة من حياتهم، وتقولوا هكذا قال موسى وهكذا قال عيسى وهكذا قال محمد ﷺ؟ فالمعارضون في زمن النبي ﷺ كان يتبعون نفس هذا الأسلوب قائلين: كيف تحاول تطبيق أمثلة حياة هؤلاء المقدسين الأولين تخويفًا للناس، مع أن أمرك مختلف عنهم، إذ كانوا صادقين وأنت كذاب والعياذ بالله؟

أما المناسبة الثالثة لطعنهم بقولهم (أساطير الأولين) فهي أنهم عندما رأوا مماثلة بين شرائع الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين قالوا هذا نقل وسرقة من كتب الأولين. فمثلاً حين رأوا في القرآن حكمًا ثم وجدوا مثله في كتاب موسى أو عيسى قالوا يا محمد إنك تعرض علينا ما سرقتَه من شرائع السابقين، فما فضلُك في ذلك؟ وهذا يعني أنهم كانوا يعترفون بفضل هذه الأحكام وفضلِ أصحابها الأولين، ولكنهم كانوا يكفرون بدعوى الرسول ﷺ قائلين: لا فضلَ في النقل والسرقة. فما دمتَ تنقل لنا شرائع موسى وعيسى فكيف ثبت بذلك أنك صادق في دعواك؟

باختصار، إن المطاعن في المواضع الثلاثة مختلفة، وقد أراد الكافرون بتوجيه هذا الطعن غاية متباينة في كل مرة. فحينًا يعنون من ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أن القرآن

حكايات منقولة من السابقين، وحينًا يعنون بها أن محمدًا يذكر أحداث الأنبياء السابقين محاولاً تطبيقها على نفسه عبثًا، مع أنه لا علاقة لها به، وحينًا ثالثا يعنون بأساطير الأولين أن تعاليم القرآن مسروقة من كتب السابقين.. إنها شرائع موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء و لم يقدم محمد شيئًا جديدا.

باختصار، هذه الاعتراضات الثلاثة تطابق المعاني الثلاثة للأساطير، وقد أجاب القرآن على كلّ واحد منها منفصلا، لأن الاعتراض في الآية قيد التفسير ذو ثلاث شعب، حيث كان موجَّهًا إلى شرائع القرآن والبعث بعد الموت وبعث الأمة، فالرد عليه أيضا جاء مغطيًا المواضيع الثلاثة. وفيما يتعلق بالبعث القريب أي بعث الأمة فقد أجيب عليه بأن هذه الشعوب الغربية تظن أن لا زوال لها، ولكنها سوف تنهار في النهاية وتذل وتخزى، وسيأخذ الإسلام مكانها، وهذا يكون دليلا على البعث بعد الموت. فالبعث الأول يُثبِت البعث الثاني.

والاعتراض الثالث هنا في هذه السورة كان حول تعاليم القرآن.. أي أن شرائع الإسلام نقلٌ وتقليدٌ لكتب الأولين، فأجاب الله عليه بقوله ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.. أي لنفترض أن محمدًا يقلّد الأولين، لكن ما باله لا يقلد إلا موسى وعيسى وغيره من الأنبياء، أما أنتم فأيضًا تقلّدون ولكنكم تقلّدون فرعون وأمثاله؛ فكيف ترمون محمدا بالكذب؟ إذا وضع محمد رسول الله ﷺ يده وضعها في يد موسى وغيره من الأنبياء، أما أنتم فكلما وضعتم أيديكم وضعتموها في يد فرعون وأمثاله، ثم إنه يعمل بشرائع الأنبياء السابقين، وأنتم تهربون من اتّباع تعاليمهم وتتّبعون الشياطين. فكلٌّ من الفريقين يقلد ما يشابهه ويماثله. لو كانت أعمال كلا الفريقين كأعمال العلّيّين، ولو كانت أقوال الكفار كأقوال الأنبياء كما هي أقوال محمد، لاشتبه الأمر على الناس و لم يعرفوا أي الفريقين على الحق، لأن كلا الفريقين يقول ما قاله موسى وعيسى ويفعل ما فعله موسى وعيسى؛ ولكن هناك فرق بيّن وبارز بين الفريقين، لأن أقوال محمد وأعماله تماثل أقوال موسى وأعماله، في حين أن أقوالكم وأعمالكم تشبه أعمال فرعون وأقواله. إنه ﷺ يتبع خطوات الأبرار، وأنتم تتبعون خطوات الفجار، وتدْعون إلى ما يتعارض مع تعاليم أنبيائكم أيضا،

وهذا دليل أن محمدا رسول الله ﷺ يتبع خطوات الأنبياء، وأنتم تتبعون خطوات أعدائهم. فسقط اتهام التقليد كليةً. إنه ليس تقليدا، إنما هي مشابهة، ثم هي مشابهة بعليين، وهذه المشابهة دليل على صدقه.

والجدير بالذكر هنا أن كفار مكة طعنوا في القرآن الكريم بقولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، والآن وبعد مرور ١٣ قرنًا قد رمى الأوروبيون نبينا محمدا ﷺ بالتهمة نفسها، حتى ألّف القسيس تِسْدِل (C. Tisdall) كتابًا بعنوان "مأخذ القرآن" أثبت فيه -زعمه- أن القرآن نقل وسرقة من الكتب السابقة (ينابيع الإسلام). وحيث إن سورة المطففين تتحدث عن الشعوب الأوروبية المسيحية، فنجد هنا تشابها بين الأوروبيين وكفار مكة، حيث رددوا نفس الطعن الذي وجّهه كفار مكة إلى رسول الله ﷺ، وألفوا كتبًا رددوا فيها نفس الاعتراض الذي أثارته قريش. وكأن قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يتضمن نبأ أن المسيحيين سيتهمون الإسلام والقرآن بنفس التهمة إبانَ غلبتهم في المستقبل. وكما قلت فقد نوقش هذا الموضوع بوجه خاص في كتاب (مأخذ القرآن)، علاوة على الكتب الأخرى التي نشرها المسيحيون ورموا فيها القرآن الكريم بنفس التهمة.

باختصار إن قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني أنه حين يُعرَض القرآن الكريم على هؤلاء المكذبين بالدين فإنهم سيقولون ما قيمة هذا الكتاب؟ فبعض ما فيه منقول من الفيدا، وبعضه مسروق من التوراة، وبعضه مأخوذ من الإنجيل، وبعضه من الزندافستا. وقد ردّ الله عليهم في الآية التالية، ولكن الإنسان المتدبر يكفيه هذا الجواب الرباني بأنكم كيف تتهمون محمدا، مع أنه قد أخبر في القرآن سلفًا أنكم سترمونه بهذه التهم في يوم من الأيام، فالحق أن تهمتكم ليست دليلا على كذبه، بل إنها لتزيد صدقه جلاءً.

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

كلاّ: حرفٌ معناه الردع والزجر. وفي "الكليات": وقد تجيء بعد الطلب لنفي إجابة الطلب كقولك لمَنْ قال لك: افعلْ كذا، كلا.. أي لا يجاب إلى ذلك. وقد يجيء بمعنى حقًّا، نحو ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾. (الأقرب)

ران: رانَ الشيءُ فلانًا وعليه وبه يرين رَينًا ورُيونا: غلب عليه. ورانت النفسُ: خبُثتْ وغثَتْ. (الأقرب). والريْن: صدأٌ يعلو الشيءَ الجليل. (المفردات)

التفسير: أي عودوا إلى صوابكم يا مَن تقولون إن القرآن أساطير الأولين، وتكلَّموا بعقلانية، وفكِّروا: مَن تتهمونه!

وحرفُ "بل" يفيد الاستدراك، وهو نوعان: أولا: (أ) ما يفيد نفي ما قبله وإثبات ما بعده، (ب) ما يفيد إثبات ما قبله ونفي ما بعده. ومثال الأول هذه الآية قيد التفسير حيث تم نفيُ ما ورد قبل (بل) من تهمة الكفار بأن القرآن أساطير الأولين، وتمّ إثبات ما بعده، حيث قال الله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ومثال الثاني قوله تعالى ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(ص:٢-٣).. أي لا شك أن القرآن ذو الذكر، ولكن إنكارهم غير معقول، بمعنى أنهم لم ينكروا القرآن لخلوِّه من الذكر، إنما أنكروه لكبريائهم وكراهيتهم للصدق. وأيضًا من الأمثلة على النوع الثاني قولُه تعالى ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾(ق:٢-٣).. أي لا شك أن القرآن مجيد، ولكن إنكارهم له يرجع إلى جهالتهم.. بمعنى أنهم يستغربون من مجيء منذر منهم ولا يتدبرون فيما جاءهم به.

وهناك نوع آخر من (بل) الذي لا ينفي ما قبله ولا ما بعده، وإنما يأتي لبيان معنى زائد، كقوله تعالى ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ..... بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(الأنبياء:٤-٦). فحرف (بل) هنا يفيد في كل مرة إثباتَ ما قبله وما بعده ويبين معنى زائدا. فمثلا قوله تعالى ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾

لا ينفي ما ورد قبله ولا يعني أنهم لا يتهمون محمدا ﷺ بالسحر، بل يبين أمرًا زائدًا بأنهم يُضيفون إلى اتهامه بالسحر أن القرآن أضغاث أحلام. ثم أُتي بحرف (بل) آخر ليشير إلى تهمة أخرى، أي أنهم لا يتهمون أن وحيه ﷺ أضغاث أحلام فحسب، بل يتهمونه باختلاقه من عنده. ثم جيء بحرف (بل) للمرة الثالثة للإشارة إلى تهمة رابعة وهي قولهم ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾.. أي أنه يؤلف كلامًا خلابًا لإغواء النَشْء.

ومثاله الآخر قول الله تعالى ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ۞ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾(الأنبياء: ٤٠-٤١). فحرف (بل) هنا يصدّق ما قبله ويزيد أمرا آخر عليه، وكأنه قيل إن العذاب يكون شديدا بحيث لن يستطيعوا رده، كما أنه سيفاجئهم فترتجف قلوبهم ويتيه صوابهم.

أما قوله تعالى هنا ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فقد جيء بحرف (بل) لنفي تهمة أساطير الأولين، حيث بيّن الله تعالى أن تهمتهم هذه باطلة، والحقيقة أن الجهل قد علا أفئدتهم وأن الرين قد غطّى قلوبهم، كما ذُكر عند شرح الكلمات أن الرَيْن هو غلبه الشيء والإصابة بالصدأ.

قال الفرّاء: "كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَيْن عليها. وقال الحسن: الرين هو الذنب على الذنب حتى يسْوَدَّ القلب" (لسان العرب). فيرى الفرّاء أن قوله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن سيئاتهم قد أحاطت بقلوبهم فأصبح إصلاحهم مستحيلاً، بينما يرى الحسن البصري أن قلوبهم سُلبتْ قوةَ معرفة الحق نتيجة ذنوبهم المتكررة.

"وقال أبو زيد يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْنًا، إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قِبَلَ له به" (فتح البيان).. أي أن قوله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن أعمالهم السيئة قد كثرت بحيث لا يستطيعون الخروج منها حتى لو أرادوا ذلك.

ويقول أبو معاذ النحوي: الرَيْن أن يسودّ القلب من الذنوب، والطبْع أن يُطبَع على القلب، وهو أشد من الرَيْن، والإقفال أشد من الطبع." (فتح البيان)

ولكن هذا ليس صحيحا عندي، بل إن هذه الكلمات: الرين والطبع والإقفال تشير إلى معانٍ مختلفة. الرْين هو الصدأ، وحقيقةُ الصدأ أن الشيء المصاب به يتآكل، إذ ليس الرين إلا أن الشيء يتغير من داخله بتأثير خارجي ويفقد ماهيّته؛ فإصابة الحديد أو النحاس بالصدأ يعني أن الندى قد أثّر عليه من الخارج فبدأ يتأكسد.

أما الطبع فمعناه قبول نقش الشيء الآخر، لأن الطبع معناه الختم.

أما الإقفال فيعني عدم انفتاح الشيء بقوته، بل الله هو الذي يفتحه إذا شاء.

إذن، فهذه الكلمات الثلاث تشير إلى كيفيات ثلاث مختلفة. فيشير الرين إلى أن السيئات الخارجية قد أثّرت فيهم بحيث قد تغيرتْ تمامًا ماهيةُ قلوبهم التي هي منبع الخير، فتجرأوا على المعاصي. أما الطبع فقد أُشير به إلى أن قلوبهم قد خُتمت بالمعاصي، أي أنهم أصبحوا من كبار العصاة، لأن الشيء المختوم يكون ذا مستوى عالٍ. وأما الإقفال فقد بيَّن أن حالتهم قد ساءت بحيث لن تنفتح أقفال قلوبهم بيد إنسان بل بيد الله فقط.. أي لم يعودوا قادرين على إصلاح أنفسهم بأنفسهم.

وهناك حديث بصدد الرْين.. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الترمذي: كتاب تفسير القرآن). ووردت هذه الرواية أيضًا في مسند أحمد والنسائي وابن ماجة والطبري بألفاظ مقاربة. وقوله ﷺ "نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداء" يعني أن قلبه مال إلى السيئات.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية حكمةً بالغة تتعلق بعلم النفس والأخلاق وهي: أن كل عمل يترك وراءه أثرا. وليس أثر العمل ما يكون أثرًا طبيعيًا مباشرًا فحسب، بل إنه يترك تأثيره على أخلاق المرء وعقله وعلمه أيضا. فمثلا عندما يكذب المرء فتأثيره المباشر أنه يشوّه سمعته بين الناس ويحرمه من ثقتهم به، ويستحق عذاب الله عاجلا أو آجلا نتيجة عصيانه له، كما أن خصمه يصبح عدوًا له ويحاول الانتقام منه؛ ثم يهجره أصحابه الصلحاء أيضًا قائلين أنت كاذب ولا تصلح لصداقتنا. هذه كلها تأثيرات طبعية ومباشرة للكذب، ولكن هناك تأثير آخر يتركه إثم المرء على

عقله وقلبه؛ فعلى سبيل المثال إن أول تأثير للكذب على عقل صاحبه وقلبه أنه يصبح أقلَّ كراهيةً للكذب، فيسهل عليه الكذب بعدها شيئًا فشيئًا. والحال نفسه بالنسبة إلى المعاصي الأخرى؛ فكل إنسان يخاف عند أول سرقة أو أول قتال أو أول سبّة أو أول فساد أو أول قتل، لأنه يخاف أن يُقبَض عليه، أو تُشوَّه سمعته بين الناس، ولكن الكذبة الأولى تؤثر في عقله فتقلّ كراهيته للكذب، بل يسهل عليه الكذب بعد ذلك. والحال نفسه بالنسبة إلى المعاصي الأخرى، فإذا ارتكب معصية منها مرة سهل عليه ارتكابها، فيقع فيها بلا تردد بعدئذ.

والتأثير الثاني للذنب على عقل المرء وقلبه، هو تناقص كراهيته للمعاصي الأخرى أيضًا. فمن يسرق تسهل عليه الجنايات الأخرى نسبيا، لأن السرقة تقلّل من إحساسه بمعصية الله. والحال نفسه بالنسبة إلى الذنوب الأخرى. فكل ذنب يكون سيئًا بحد ذاته، لكن له تأثير خارجي آخر بأنه يقلل كراهية المرء تجاه السيئات الأخرى، فيزداد عصيانا لله تعالى.

والتأثير الثالث للذنب في نفس الإنسان أنه يسيء الظنّ بالآخرين، لأنه يفكر أن الآخرين أيضا يرتكبون هذا الذنب مثله. فمثلاً إذا قلتَ للكاذب قولاً صادقًا، فإنه يقول في نفسه: إن هذا أيضًا كذوب مثلي، إذ كيف يمكن أن يصدق أحد في قوله؟ وهذا راجع إلى اعتياده الكذب. فهكذا يظل مثل هذا الإنسان محروما من معرفة الحقّ، وبدلا من أن ينتفع من الصدق ينسب أفعال الآخرين إلى سوء النيّات؛ إذ يُعرَض عليه الحق، فيرفضه بدلاً من أن يتدبر فيه، ظنًّا منه أن هذا أيضًا يكذب مثلي، وأنه يحاول خداعي كما أنا أخدع الناس.

والتأثير الرابع أن مثل هذا الإنسان يصبح محروما من معية الصادقين؛ إذ يظن أن ليس في الدنيا أي صادق، وأن الجميع كذابون مثله، كما أن الصادقين أيضا يتجنبون صحبته.

هذا الموضوع واسع جدًا، وهو بمثابة الأصل للخير والشرّ الموجودين في الدنيا، ويكشف لنا سبب دمار أخلاق أهلها. لقد بين القرآن الكريم في هذا القول الوجيز ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أن أي عمل له نتيجتان: مباشرة

وغير مباشرة، والمراد من النتيجة غير المباشرة أن سيئته تدمر قواه العقلية والعلمية والفكرية، وهذا ما يسمى ريْنًا.

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾

التفسير: هذه المرة الثالثة لتكرار كلمة (كلا) في هذه الآيات، إذ قال الله تعالى من قبل ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، وقال ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال الآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾. وسيأتي بعدها بقليل قول الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾. وربما لم تتكرر ﴿كلا﴾ في القرآن الكريم بهذه الكثرة في آيات قليلة، حيث تكررت هنا أربع مرات. ولقد سبق أن بينتُ أن (كلا) تفيد الردع والزجر، فتكرارها هنا إشارة إلى شدة العذاب. قال الله تعالى في القرآن بحق النصارى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:١١٦). ذلك أن المسيح عليه السلام كان قد طلب من الله تعالى إنزال مائدة لقومه، فأجابه الله أني سأعطيهم نعمة المائدة، ولكن كفرانهم بها سيؤدي إلى نتائج وخيمة جدا. لقد دعوتَ لقومك بالتقدم المادي، فسوف أكتبُه لهم على نطاق واسع، ولكنهم لو كفروا وتبرءوا من الدين وابتعدوا عن الله تعالى وأعرضوا عن أحكامه، فإني سأعذّب الأمة المسيحية بعذاب لم أعذّب به أي أمة قبل ذلك. فلما كان هناك في سورة المائدة وعدٌ من الله تعالى بأنه سيمنح الشعوب المسيحية رقيا ماديًا كبيرًا، كما كان هناك خبر أنهم إذا مالوا إلى الكفر فسوف يعذّبهم عذابًا لم يسبق له نظير، فتكرار ﴿كلا﴾ هنا سيُعتبر إشارةً إلى هذا العذاب الشديد نفسه، وكأن الله تعالى يحذر أمة المسيح عليه السلام ويقول أيها المسيحيون انتبهوا، فقد أصبحتم مطفّفين، حيث تغصبون حقوق العباد، وترفلون في الرخاء المادي. لقد كنتُ حذرتُكم من قبل أنكم لو كفرتم بي بعد إحراز الترقيات

المادية، وكفرتم بنعمتي وتكالبتم على الدنيا، معرضين عني، فسوف أعذبكم عذابا لم أعذب به أحدا من العالمين، فاعلموا أن هذا العذاب قد قرب، وآن الأوان أن نبطش بكم بطشا شديدا مهيبا.

والتدبر في تكرار ﴿كلا﴾ ههنا يكشف أمرًا آخر أيضًا، وهو أن ﴿كلا﴾ قد تكررت هنا ٣ مرات بعد ذكر الكفر، ومرة واحدة قبل ذكر المؤمنين، وفي ذلك إشارة أنه ستقع ثلاث هزات لتدمير المسيحية، ثم تقع الهزة الرابعة لازدهار الإسلام. ويبدو، بحسب ما يُفتي به العقل، أن الحرب العالمية التي انتهت سنة ١٩١٨ كانت هي الهزة الأولى التي أُصيبت بها المسيحية، والحرب العالمية الحالية (الثانية) هي الهزة الثانية لها، وستكون بعدها حرب عالمية ثالثة لتكون الهزة الثالثة والأخيرة لهلاك الشعوب الغربية، ثم تليها الهزة الرابعة التي يزدهر بعدها الإسلام ثانية، فتصبح هذه الشعوب ذليلة مقهورة تماما؛ ذلك لأن الله تعالى يقول بعد ورود كلمة ﴿كلا﴾ في المرة الرابعة مباشرةً: ﴿كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فاليوم المذكور هنا هو نفس اليوم المذكور من قبل في قوله تعالى ﴿يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾(الآية: ١٢).

وقد أُشيرَ بكلمة ﴿ربهم﴾ هنا إلى أن علاقة ربوبية الله مع العبد كعلاقة الأُمّ مع الولد؛ فإن الأُمّ تربي ولدها وترضعه وتعتني به وتسدّ حاجاته حتى يترعرع ويكبر؛ وهذا هو معنى الرب أيضا، حيث يهيئ الله الأسباب لتربية الإنسان ماديًا وروحانيا. فالربّ يسعى من جانبه لأن يقترب من الذي يربيه، ويحاول مَن يتلقى الربوبية أيضًا أن يقترب من ربه؛ شأن الأم حيث تحب ولدها وولدُها أيضًا يحبها. فالله تعالى يبين هنا أن الصلة بيني وبين هؤلاء القوم تفرض أن أحبّهم ويحبّوني، ومع ذلك فسينغمسون في المعاصي حتى يُحجَبوا عن ربهم. والمحجوب من مُنع من الوصول إلى شيء بوضع حجاب بينهما. وأيّ شك في شقاوة إنسان صار محجوبًا عن ربه؟ ولذلك يقول الله تعالى هنا: ما أشقى هؤلاء القومَ! فإنهم سيُحجبون عن ربهم يومئذ رغم صلة الربوبية بينهم وبينه.

هنا ينشأ سؤال: ما هو المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.. (١) هل المراد أن باقي الناس سيرون ربهم بينما يظل هؤلاء المسيحيون محجوبين عن ربهم؟ (٢) هل كان المسيحيون قبل ذلك يرون ربهم بينما يكونون يومئذ من المحجوبين عنه؟

الجواب أنه فيما يتعلق بالرؤية القلبية، فكل إنسان غير مُعرض عن الدين يرى الله، لقوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣).. أي أن من لم ير الله تعالى في الدنيا لن يراه في الآخرة. مما يعني أن الله تعالى قد اعتبر كل المؤمنين الناجين ممن يرونه ﷻ. ومع ذلك لا يمكن لكل مؤمن أن يقول إنه قد رأى الله في الدنيا. وهذا يعني أن مجرد الإيمان يُعتبر أولى درجات الرؤية الإلهية، فإذا رُزق المرء الإيمان جاز لنا القول إنه قد رأى الله تعالى. ذلك أن الإيمان لا يتيسر بغير معرفة صفات الله تعالى؛ إذ ليس ﷻ اسمًا لشيء مادي، بل هو ذلك الذي اتصف بكل الصفات الحسنة من ربوبية ورحمانية ورحيمية ومالكية يوم الدين. وإذا فهم المرء ربوبيةَ الله ورحمانيته ورحيميته ومالكيته وغيرها من صفاته موقنًا بها، تيسرتْ له درجة من رؤية الله تعالى. إذن، فمن رؤية الله ما يتيسر لكل مؤمن بدون استثناء ولا فرق، سواء كان ضعيف الإيمان أو من المقرَّبين.

ثم يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(الآيات:١٢٥-١٢٧).. أي أن من أعرض عن ذكري ولم يتدبر في صفاتي ولم يدرسها عاش عيشة ضيقة جدًّا؛ ذلك لأن نطاق عمل الإنسان إنما يتسع نتيجة معرفته بصفات الله تعالى؛ فمَن تيسر له الإيمان الصادق بالله تعالى، تحلّى بالسخاء والصدق والأمانة والسداد والرأفة والمحبة، ولم يزل يزداد في حسناته هذه، ولكن مَن لا يؤمن بصفات الله تعالى فإن نطاق عمله يظل محدودًا جدًّا.

الحقيقة أن نطاق عمل المرء يتسع بسموّ طموحه؛ أما مَن لم يكن مطمحه عاليًا فإن أعماله تظل في نطاق ضيق؛ ولذلك نجد أخلاق الفلاسفة لا تساوي أمام أخلاق

الأنبياء شيئا، كما أن أخلاقهم القليلة أيضًا تظل ضيقة النطاق جدًّا. لو نظرنا إلى أخلاق النبي ﷺ أو إلى أخلاق موسى أو عيسى -عليهما السلام- لوجدناها واسعة سعةً غير عادية. فكان صدقهم عظيما، وأمانتهم عظيمة، وبشاشتهم عظيمة، وسخاؤهم عظيما، ورحمتهم وعنايتهم بالفقراء وعدلهم وتوكلهم عظيمًا؛ لقد تحلَّوا بعشرات الأخلاق الحسنة، وبمستوى عال جدًّا. وعلى النقيض إذا رأيت الفلاسفة، فقد تجد أحدهم أمينا أو سخيا، ولكن لن تجد أيًّا منهم يجمع في نفسه الأخلاق الحميدة كلها؛ وليس ذلك إلا لأن المرء تظل أعماله محدودة في نطاق ضيّق ولا تتسع أبدا ما لم يكن أمامه مطمح عال يتطلع إليه، وما لم يكن أمامه أسوة رائعة يتأسى بها. وإذا ظلت أعمال المرء في نطاق ضيق جدًّا فلن تتسع ولن تتنوع أعماله أبدًا؛ فأنَّى له أن يرى ربه يوم القيامة؟ وكيف يعرف إلَهه الربَّ مَن لم يسعَ للتحلي بربوبية كربوبيته؟ وكيف يعرف إلَهه الرحيم مَن لم يكن رحيما؟ وكيف يعرف إلَهه الرحمن مَن لم يكن رحمانًا؟ وكيف يقدر على رؤية الله تعالى يوم القيامة مَن لم يكن غفورًا وستّارا ومهيمنا؟ فمَن لم يذق في حياته الشمام مثلاً، كيف يعرف طعمه حتى ولو رآه؟ كلا، سيفشل في استيعاب كنهه. فالذي يظل نطاق عمله محدودا ضيقا، ولم يعكس صفات الله تعالى في مرآة قلبه في الدنيا، فكيف يعرف ربه إذا ظهرت صفاته أمامه يوم القيامة؟ كلا بل إنه سيقف كالأعمى ولن يرى منها شيئا. وحيث إنه يُبعَث يوم القيامة أعمى، مع ظنه أنه فيلسوف حكيم بصير ومفكر كبير، فيقول لله تعالى يومئذ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾.. أي لِمَ بعثتَني أعمى اليوم مع أنني كنت بصيرا حكيمًا، وعالِمَ نفسٍ كبيرا، وفيلسوفا عظيمًا وعالما كبيرا، أؤسس معلوماتي على المشاهَدة، وأقضي ليلي ونهاري في مطالعة الكتب والتدبر في أسرار الكون؟ فيجيبه الله تعالى ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.. أي قد أريناك على يد رسولنا المعجزات، وأتيناك بالآيات على كوننا إلهًا قادرا، وربًّا ورحيما، ومالكا ومحييا ومميتا، فلم تأبَهْ بها ولم تتوجه إليها. كنت ترى رسولي وتعتبر كلامه فارغًا، وتقول أنَّى لهذا الشيخ أن يستوعب علومي ومعارفي! أنا فيلسوف! أنا "كانْط"! وأنا "هيجل"! كيف أضيع وقتي في

هذه الأمور التافهة. فما دمتَ مُعرِضًا عنا، فنُعرض عنك. ولأننا نحن مَن يهب للإنسان الأعينَ والنورَ اللذيْنِ بهما يبصر، فلو كنتَ متوجهًا إلينا من قبل لأعطيناك العيون والنور، ولكنك أعرضت عنا، فنـــزعنا منك نورنا، فحُشرتَ في هذه الحياة أعمى.

لقد تبين من هنا أن المعجزات والآيات إنما تهب المؤمن نوعًا من رؤية الله تعالى، ولكن المحرومين من هذه الرؤية يظلون محرومين من الرؤية التي هي أكبر منها، والتي تتيسر في هذه الدنيا أو في الآخرة.

وكان السؤال الثاني هل كان المسيحيون قبل ذلك اليوم يروْن الله تعالى حتى قيل لهم ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فالجواب: أن ذلك اليوم خاص برؤية الله، ومع ذلك لن يُرزقوها يومها أيضا. ذلك أن القاعدة أن العلم يزيد المرء معرفة بالأشياء فورًا، ولكن في بعض الأحيان يصاب القلب بالصدأ بحيث لا يتيسر العرفان رغم العلم؛ فمثلا إذا قلتَ لإنسان عادي أن هذا الشيء هو الأفيون، وفيه أضرار كثيرة، فسوف يتجنب تناوله، لعلمه أن لو تناوله أصيبَ بالمرض وضعفتْ أعصابه، ولكن مَن اعتاد تعاطيَ الأفيون، فلن يجديه نصحُ الطبيب، مهما حذره ونهاه عن تعاطيه، بل إنه يستمر في تعاطيه مهما ساءت أخلاقه وتدهورت صحته. فهذا الشخص يملك العلم ولكن يعوزه العرفان، لأن عادته القديمة وريْنَ قلبه قد حالا دون تيسر المعرفة له رغم تيسر العلم له؛ فلا يستطيع ترك الأفيون. هاتان هما الحالتان اللتان تطرآن على الناس؛ والحق أن الرؤية الإلهية اسم للعرفان وليس للعلم؛ وحيث إن ذلك اليوم يكون خاصًا لرؤية الله تعالى، وهذه الرؤية إنما تتيسر بالعرفان لا بالعلم، فلذلك عندما تتجلى قدرة الله وقوته يومئذ فلن يتيسر لهم العرفان رغم انكشاف خطئهم عليهم، لكون قلوبهم نجسة قد رانت عليها ذنوبهم.. أي لن يكون عندهم العرفان الذي هو نتيجة طبيعية للعلم، فمثلهم كمثل متعاطي الأفيون، الذي لن يتركه مهما حذَّرته وخوَّفته لاعتياده تناولَه.

فالله تعالى يبين هنا أن ذلك اليوم يوم الانكشاف، فرغم تيسُّر العلم لن يتيسر لهم العرفان لكون قلوبهم قد تنجست، فبرغم أنهم يقولون ربنا قادر ويدركون أن الله

رحيم وعزيز، ولكن لن يكون لهم أي صلة بالرب الرحيم القادر الكريم ، فلا يستحقون الجنة بل يدخلون النار.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾

التفسير: أي لا تظنوا أن المؤمنين لن يزدهروا ولن يتقدموا؟ كلا، بل إن نصيب المؤمنين مكتوب في ﴿عليين﴾. لو فسرنا ﴿عليين﴾ بمعنى القرآن، فالمقصود تلك الآيات القرآنية التي فيها أنباء عن ازدهار المسلمين، ولو كان ﴿عليين﴾ بمعنى الدرجات العلى، فالمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أن نيل المؤمنين درجاتٍ عُلا قضاءٌ مبرم.

قال ابن عباس إن المراد من ﴿عليين﴾ الجنة (ابن كثير). وقال صاحب المفردات: "بل ذلك في الحقيقة اسمُ سُكّانها، وهذا أقرب في العربية، إذ كان هذا الجمع يُختص بالناطقين." وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني أن اسم الأبرار مكتوب في عليين، وأن ذكرهم موجود حيث ذكرُ ﴿عليين﴾.

وهناك رواية عن عبد الله بن كعب عن أبيه قال: "لما حضرتْ كعبًا الوفاةُ أتتْه أُمُّ بِشر بنتُ البراء، فقالت: يا أبا عبد الرحمن إن لقيتَ ابني فلانا فاقْرَأْ عليه مني السلامَ. فقال لها: غفر الله لك يا أُمَّ بِشر، نحن أشغلُ من ذلك. قالت: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: "إن نسمة المؤمن لتسرح في الجنة حيث شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين؟ قال: بلى، قالت: فهو ذاك." (ابن ماجة، كتاب الجنائز، والطبراني الحديث رقم ١٢٢، والبيهقي الحديث رقم ٤٢٤٠).

لقد تبين من هذا الحديث أن ﴿عليين﴾ يعني الحرية، إذ ورد في الحديث أن "نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت"؛ وقد بيّنّا من قبل أن معنى السجين هو السجن؛ وعليه فتعني هذه الآية أن الكافرين كما جعلوا نطاق أعمالهم محدودًا جدا، وقصّروا في الحسنات، كذلك فإنهم سيوضعون في ﴿سجين﴾، أي في حالة سجن

وقيْد، أما المؤمنون فكان نطاق أعمالهم واسعا جدا، فلذلك يكونون في ﴿عليين﴾، أي في جماعة لا حدود لصلاحها وارتقائها.

هذا المعنى بيّنتُه نظرًا إلى هذه الدنيا. أما بالنظر إلى الآخرة، فالمراد أن المؤمنين لما وسّعوا نطاق أعمالهم في الدنيا، فسيعاملهم الله تعالى في الآخرة برحمة واسعة، فيضع أرواحهم في حرية، فتسرح في الجنة حيث شاءت. ولقد ناقشت هذا الأمر في كتابي "الأحمدية.. أي الإسلام الحقيقي"، حيث بينتُ أن الروح الإنسانية يمكن أن تذهب في الجنة حيثما تشاء. ولكن هذا لا يعني أن أهل الجنة يكونون جميعًا على درجة واحدة. لقد أثبتُّ في كتابي هذا أن لأهل الجنة أن يذهبوا حيث شاؤوا، وفي نفس الوقت تكون درجاتهم متفاوتة.

باختصار، لقد حذّر الله تعالى المسيحيين بقوله ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، وأخبر أنه ستقع لهلاكهم ثلاث هزات قوية، وبعدها تقع الهزة الرابعة الأخيرة، فيرفع الله المسلمين من تحتهم، ويبوّئهم أعلى المراتب والدرجات.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٢٠﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢١﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير: أي أيها المستمع، ماذا تعلم عن عليين؟ كتاب مرقوم.. أي أنه سجلٌّ مكتوب، أو أنه كتاب مختوم، أي قرار قد خُتم عليه فلا يُغيَّر ولا يُبدَّل؛ أو المعنى أنه قرار مكتوب، وهذا أيضا بالمعنى السابق لأن الكتاب المكتوب لا يتغير.

ثم قال الله تعالى ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.. أي سيرى المقرّبون المصير المذكور سابقا.

هذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، فإن ذلك اليوم يكون عسيرا على الكافر بحيث يقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.. أي أنه سيتأوّه متأسفا ويسعى للفرار من مصيره، أما المقرَّب فيسارع إلى رؤية مصيره، ويذهب إليه برغبته، لأن مصيره محمود.

كأن الله تعالى يختم الحديث عن نبوءات هلاك الكافرين وازدهار المؤمنين هنا، مبينًا أن غلبة هؤلاء المطففين ستطول بلا شك، ولكن الله تعالى سيُنهيها حتمًا، ومن أجل ذلك كرر لفظ (كلا) أربع مرات في سورة واحدة على فترات قصيرة، وفيه كما قلتُ من قبل إشارةٌ خفية إلى وقوع ثلاث هزات قوية لإهلاك الشعوب الغربية، ثم بعدها تقع الهزة الرابعة التي يتراءى بها مصير هؤلاء المطففين أمام أعينهم، فيغلب الإسلام ويهلك الكفر، وسيكون مصير هؤلاء المسيحيين وخيمًا بحيث سيحاولون الفرار منه بكل وسيلة، ولكن بدون جدوى. أما المؤمنون فيسارعون لرؤية مصيرهم قائلين نِعم المصير ونِعمت العاقبة!

والجدير بالذكر هنا أن كلمة ﴿سجين﴾ التي قد وردت هنا بحق الكافرين مفردةٌ، وكلمة ﴿عليين﴾ الواردة بحق المؤمنين جمعٌ. وهذه إشارة إلى أن الله تعالى لا يزيد في عقوبة الكافر، بينما يزيد في جزاء المؤمن، وبالتالي يظل الكافر مقيَّدا في سجن واحد، بينما يظلّ المؤمن ينتقل من بيت إلى آخر أجمل وأروع وأعلى، وهكذا يسير الله به في عوالم كثيرة. فللمؤمن بيوت كثيرة، وللكافر بيت واحد. هذا هو السبب في أن الله تعالى استخدم صيغة المفرد لبيت الكافر وصيغة الجمع لبيت المؤمن.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

نعيم: انظرْ في شرح الكلمات في سورة الانفطار تحت الآية: ١٤.

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا إن الأبرار سيُنعم الله عليهم، بل قال إنهم سيكونون في نِعمة.. أي أن الله تعالى سيجعل محيطهم كلَّه نعمةً. ويمكن تفهُّم هذا التعبير بمثال شخصين أحدهما يُصَبّ عليه الماء بدلو، والآخر يقفز في بركة الماء، لا شك أن كليهما سيتبلل بالماء، ولكن شتّان بينهما. إذًا فالمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أن الله تعالى سيجعل محيطهم كله نعمة، وكأنما قفزوا في بِركة النعمة، أي أن النعمة ستحيط بهم وتغطيهم من كل جانب.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

الأرائك: جمعُ الأريكة، وهي سريرٌ منجَّد مزيَّن في قُبَّةٍ أو بيتٍ، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حَجَلَةٌ. (الأقرب)

التفسير: كلمة ﴿ينظرون﴾ صفة للأبرار، أو حال. فإذا اعتبرناها حالاً فالمعنى أن المرء ينال بعض النعم في الدنيا ولا يدرك حقيقتها، ولكن الله تعالى سيؤتي المؤمنين هذه النعمة وهم ينظرون.. أي يدركون عظمتها وقيمتها. ومثاله الواضح أنك إذا أعطيتَ طفلا قطعة ألماس فلن يعتبرها شيئا ذا قيمة، كذلك حين ينعم الله على بعض الأمم بنِعمٍ فلا يدركون حقيقتها؛ فمثلا قد أُعطيت الشعوب الأوروبية مائدة، تلك المائدة التي دعا لها المسيح من أجلهم، ولكنهم يظنون أن كل ما أحرزوه إنما أحرزوه بقوتهم؛ وكأنما قد عميت بصيرتهم. ولكن الله تعالى يقول عن المؤمنين إننا حين ننعم عليهم سيكونون عندها على الأرائك ينظرون.. أي يدركون أن هذه النعم نتيجة للنبوءات الواردة عنهم. وكأن المعنى أنهم لما كانوا يتمتعون بالبصيرة الروحانية، فسيحملون عبء الأمانة جيدا. انظروا مثلاً إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ أجمعين فإنهم كانوا يدركون عند كل خطوة أن ما أُعطوه ليس مُلْكًا لهم، بل الله تعالى قد وضع هذه الأمانة في أيديهم، فحافَظوا عليها كما ينبغي أَن يحافَظ على أمانات الله.

أما إذا اعتبرنا "ينظرون" صفة للأبرار، فمعنى الآية عند المفسرين: ١- ينظرون إلى ما شاءوا من رغائب مناظر الجنة وما أعدَّ الله لهم من كرامات، ٢- ينظرون إلى أهل النار أعدائهم. (روح المعاني)

الواقع أن المفسرين ظنوا أن هذه الآيات خاصة بيوم القيامة، فدفعهم ذلك إلى التفكير في أشياء تتعلق بالقيامة. لا شك أن هذه الآيات يمكن أن تنطبق على يوم القيامة أيضا، ولكن قبل حلول القيامة يمكن أن يراد من ﴿نعيم﴾ نِعم هذه الدنيا، التي وُعد بها الأبرار؛ ولذلك أرى الآتي:

أولاً: لقد أخبر الله تعالى من قبل عن مصير هؤلاء الفجار فقال ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.. أي أنهم لن يُرزقوا رؤية ربهم يوم القيامة، فكان لزامًا الآن أن يخبر عن مصير الأبرار، فلذلك قال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.. فلذلك يجب تفسير قوله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ﴾ على ضوء مصير الفجار المذكور في الآية السابقة، وبسبب هذه القرينة سكت الله عما ينظرون إليه؛ ولذلك فأحد معاني ﴿ينظرون﴾ هنا أنهم ينظرون إلى ربهم ولا يكونون من المحجوبين عنه.

وهذا النظر نوعان: أولهما: صفاتيٌّ، أي ما يتعلق بظهور الصفات الإلهية في الدنيا، كما يقول الناس في بلادنا عند رؤية مصيبة أو انقلاب عظيم أو حالات غير عادية: لقد رأيتُ برؤيتها ربي. وعليه فقوله تعالى ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: عندما يحين موعد تحقق هذه الأنباء سيُحدث الله في الدنيا انقلابات عظيمة، فيقول كل مؤمن برؤيتها: هذا ليس إلا من عند الله تعالى. وأمثلة ذلك موجودة في تاريخ الإسلام؛ فمثلا مرةً كان والد أبي بكر جالسا في مجلس بمكة حتى جاء شخص من المدينة، فسأله عن حال المدينة، فقال: لقد توفي رسول الله ﷺ، فقال: فماذا حصل بعد ذلك؟ فقال الزائر: لقد انتخب الناس خليفةً له. قال: مَن؟ قال: أبو بكر. فقال والدُ أبي بكر: مَن أبو بكر؟ قال: ابن أبي قحافة. فذكر أبو قحافة له أسماء عدة عائلات كبيرة، وقال: هل رضي هؤلاء بانتخابه؟ فقال: نعم، لقد بايعوه جميعا. فلم يملك والد أبي بكر نفسه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (الطبقات الكبرى: ذكرُ بيعة أبي بكر ﷺ).. أي لولا أن الله أحدٌ وأن محمدا رسوله لما رضيتْ كبار قبائل مكة وعائلاتها -التي لا تعرف الانقياد ولا الإذعان لأحد من غيرهم - بأبي بكر خليفةً. كذلك كان الأنصار يعيشون في مدينتهم وكان يمكن أن يفكروا في أن الحُكم يجب أن يكون بيدهم، ولكنهم بايعوا على يد أحد أهالي مكة. ولذلك يخبر الله تعالى أنه ستحدث ظروف بحيث يقول الناس: لقد نظرنا إلى الله ورأيناه، كما تذكَّرَ أبو قحافة الله تعالى عند خلافة أبي بكر وقال تلقائيا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

والرؤيا الثانية هي رؤية روحانية، أي أن ينـــزل الله على قلب عبده ليثبّته على مقام اليقين الكامل. وهذه الرؤيا القلبية تلي الرؤيا الأولى، لأن الرؤيا القلبية تؤدي إلى الشبهات أحيانًا، إذ يظنها مجرد وَهْم أو خيال، فلذلك لا ينـــزل الله على قلب الإنسان إلا بعد أن يُريه الآيات فيما حوله، وحيث إن هذا الإنسان يكون قد رأى صفات الله متجليةً فيما حوله، فعندما يتجلى الله بصفاته على قلبه يتيسر له اليقين الكامل بذات الله تعالى.

لقد بين الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر أيضا حيث قال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١-٢٢). فأخبر أولاً أن في الأرض آيات ثم أخبر أن في أنفسكم آيات. إذًا، فمن سنة الله تعالى أن يري آياته فيما حول الإنسان أولاً، ثم يتجلى على قلبه لكي لا يبقى في غُمّة من أمره. وقد ورد عن النبي ﷺ قول عائشة رضي الله عنها: أَوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. (البخاري، كتاب بدء الوحي). فالله تعالى بنفسه يهيئ مثل هذه الظروف لكي لا يظل صاحب الوحي والإلهام في شك، ولا يقول مَن حوله إن به مسًّا من الجنون؛ ثم بعد ذلك يتجلى ﷻ على قلبه. إن التجليات التي ظهر الله بها على المسيح الموعود عليه السلام أيضا كانت تدريجية، فأولاً تلقّى إلهامات من قبيل: "اليوم سيأتي المال من أحد أقارب الحاج أرباب محمد خان" (براهين أحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٥٦٥)، أو: "فُصلت القضية في حقه، لأنه مسلم" (المرجع السابق ص ٦٥٩). ولما تواترت الإلهامات وتحققت وظهر للناس صدقه، كما امتلأ قلبه باليقين، تجلّى الله عليه بتجلٍّ آخر أعظم.

باختصار، يهيئ الله تعالى من الظروف ما يدرك به صاحب البصيرة الثاقبة أن أمرًا ما سيظهر من وراء قدرة الله تعالى. فقوله تعالى ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني أن المؤمنين العاديين سيَرَوْن التجلي الإلهي الذي يظهر فيما حولهم، أما المؤمنون الكُمَّل فيرون ذلك التجلي الإلهي الذي سيظهر في نفوسهم هم.

ولقوله تعالى ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ معنى آخر، وهو أن الأرائك والسرر تُستخدم لإزالة التعب بالنوم أو الاستلقاء عليها، بينما يقول الله تعالى إن هؤلاء الأبرار يكونون

ملتزمين بدينهم كليًّا حتى في مقام النوم والراحة أيضًا، فيكونون نشيطين ويراقبون المهمات المفوضة إليهم بتيقّظ. وكأن الله تعالى يخبر هنا أن الآخرين إذا نالوا النعمة والرخاء والراحة ركنوا إلى الكسل والغفلة وقصروا في أداء مهامّهم، فتهاونوا في أداء حقوق الناس، بل وانغمسوا في الملذات ونسوا واجباتهم، ولكن هؤلاء الأبرار ليسوا كذلك، بل حين يعطيهم الله تعالى الحُكم والمُلك في الدنيا ويكتب لهم العزة والشرف ويعطيهم المال والثروة، فلن يركنوا إلى الكسل والغفلة، بل سيؤدون واجباتهم على أحسن وجه، يقظين حذرين من أن يحصل في أدائها نقص، وكيف يمكن تلافيه إن حصل. وبالفعل قد أعطى الله المسلمين المال والعز حسب وعده، ومع ذلك لم يغفلوا عن الإسلام. فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ ترك عند وفاته من المال والعقار ما يساوي الملايين، وكان دخله السنوي بمئات الآلاف (الطبقات الكبرى: ذكر وصية عبد الرحمن بن عوف)، ومع ذلك ظلّ ﷺ يعمل على نشر الإسلام ليل نهار، ولم يركن إلى الكسل أو الغفلة لكثرة المال والثراء. وقد نال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مُلكًا عظيما، ولكنهما لم يغفلا ولم يكسلا، بل قاما بواجباتهما بكل حذر وتيقظ. فقد رُوي عن عثمان ﷺ أنه كان جالسًا في قبته ذات يوم، وقد أهكه الحر الشديد بحيث لم يقدر على فتح بابها. فرأى مِن نافذتها شخصًا يمشي في القيظ، فقال لخادمه: انظرْ من هذا. فأزال الستار فإذا شخص قد لفح الحرّ وجهه بشدته. فقال: مسافر. فلما اقترب من قبته عرف أنه عمر ﷺ، فقلق عثمان ﷺ وقال له: ماذا تفعل في هذا الحرّ يا أمير المؤمنين؟ قال: أبحث عن بعير فُقد من بيت المال. (أُسد الغابة: عمر بن الخطاب ﷺ)

فقد أخبر الله تعالى بقوله ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أن هؤلاء سيراقبون مهماتهم دائمًا رغم جلوسهم على الأرائك، فلن يجعلهم رخاء الدنيا ونعمها كسالى. ولن يدفعهم جلوسهم على الأرائك إلى النوم والكسل، بل سيكونون فيها يقظين حذرين يراقبون حقوق الناس ويؤدون واجباتهم أحسن أداء.

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

نَضْرة: النضرة: النعمةُ؛ العيشُ؛ الغنى. وقيل الحُسن والرونق واللطف..... قوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.. أي بريقه ونداه. (الأقرب)

التفسير: من معاني هذه الآية أن النعمة الإلهية الروحانية ستنـــزل على قلوبهم بحيث تتدفق من وجوههم، فلن يستطيعوا إخفاءها. ذلك أن الأمور في الدنيا نوعان؛ ما يمكن إخفاؤه، وما لا يمكن إخفاؤه فيتجلى تلقائيا، ولذلك يخبر الله تعالى أن نضرة النعيم ستتدفق من وجوه الصحابة، ولن يستطيعوا إخفاءها. لقد جاء في زمن الفيج الأعوج متصوفون من المسلمين لم يكونوا يخبرون مريديهم شيئًا من معارف الدين إلا بعد أن يخدموهم لعشر أو لاثنتي عشرة سنة، أما الصحابة فكانوا على عكس ذلك؛ إذ كان الواحد منهم يقول: لو وضع العدو السيفَ على عنقي، وتذكرتُ قولاً لرسول الله ﷺ لم أذكره للناس، فسوف أذكره لهم قبل أن تُضرب عنقي (البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول). إذًا فكان الصحابة توّاقين لنشر أحكام الله في الدنيا، ولكن هؤلاء المتصوفة يظنون أنهم لو أخبروا الناس شيئًا من علومهم فإنها ستنفد، فيصبحون سواسية معهم. فمثلاً لما ألقيتُ خطابًا بعنوان "ذِكر الله" في الجلسة السنوية، كان أحد المتصوفين غير الأحمديين يسمع خطابي، فبعث إليّ رسالة في وريقة بما معناه: ما هذا الذي تفعل؟ تخبر الناسَ هذه المعارف واحدة تلو أخرى، مع أن المتصوفين الآخرين لا يذكرون واحدة منها لأحد إلا بعد أن يخدمهم عشر سنوات؟! فثبت أن من عادة الناس أنهم يخفون علمهم، ولكنا لا نبالي بذلك، لأن الله تعالى يعلّمنا معارف جديدة كل حين، وإن إخفاء العلوم عندنا هو بمنزلة تكدير الماء الصافي النقي. ثم إنه مخالف لما أمرنا الله تعالى به في قوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الضحى:١٢).. أي انشروا نعم الله بين الناس ما استطعتم.

إذن، فالله تعالى يخبر هنا أن هؤلاء الأبرار لا يُخفون نِعَمَه عن الناس، بل هي ستتدفق من وجوههم ويودّون أن يجدوا مَن يَعرِضونها عليه.

وهناك معنى آخر لهذه الآية، وبيانه أن الآية السابقة تحدثت عن الترقيات المادية، فلذلك قال الله تعالى الآن أنهم لن يتصرفوا كالآخرين حين ينالون الرقي المادّي. فهناك أناس ينالون النعم المادية ومع ذلك تظل قلوبهم تحترق، إذ يفتقرون إلى الطمأنينة والسكينة، فإذا نال أحد المُلكَ مثلاً وقعت في أسرته فُرقةٌ وفساد حتى يصبح مُلكه وبالاً عليه، أو يتآمر عليه أمراؤه ووزراؤه بحيث لا يجد سكينة القلب مطلقًا رغم أنه صاحب مُلك؛ فإذا أتاه الطباخ بالطعام خاف أن يكون قد دسّ فيه السمّ، وإذا أتاه الطبيب للعلاج ظنّ أنه يريد قتله بدواء مسموم، وإذا جاءه وزير خاف أن يغتاله؛ ولذلك نجد عند الملوك وسائل شتى وغريبة للحراسة والرقابة. ولكن الله تعالى يخبر أنه سيعطي المؤمنين نِعَمًا لن تكون آثارها بادية على وجوههم فحسب، بل ستنزل على قلوبهم، فلن يفقدوا طمأنينة القلب كما يفقدها الآخرون رغم نجاحهم المادي، بل إنهم يحرزون الترقيات المادية، كما تنعم قلوبهم بالفرحة والسكينة مع الترقيات المادية.

وهناك معنى ثالث لهذه الآية، وهو أن الله تعالى قد بيّن هنا أنهم سينالون غنى النعيم.. أعني أنهم سينعمون بالغنى الذي هو نتيجة النعمة الحقيقية، والذي بسببه يرحم المرء الفقراءَ. فإننا نجد في الدنيا أن بعض الأخلاق الحميدة تتيسر للإنسان بالكسب، وبعضها يتحلى بها بالوراثة؛ فمثلا نرى أن من نال الثراء بالكسب حافظ عليه كل الحفاظ، ومَن نال الثروة نتيجة نسبه أي ورثها عن أبيه، لم يحافظ عليها مثل الأول. فمثلاً لو أضاع خادمُ مَن نال الثراء بالكسب شيئًا، عامَلَه بقسوة، ولكن مَن كان غني القلب نتيجة نسبه، فلن يعاقب خادمه مثل الأول، بل يؤثر التغاضي والعفو عنه. ومن معاني (نضرة) الغنى أيضًا، وعليه فقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ يعني أن الصحابة –رعاة الإبل– عندما سيُجلسَون على العرش فإنهم سيتحلون بسعة الصدر وغنى النفس ودماثة الخلق بحيث يبدو للرائي أنهم ورثوا المُلك عن آبائهم. وكأنهم يتحلَّوْن – فور جلوسهم على كرسي الحكم بإذن الله – بالأخلاق التي تتولد بالتدرب والكسب، وأيضًا بالأخلاق التي يرثها المرء بالنسب. وبالفعل لن تجد في أعمال الصحابة شيئًا من اللؤم والخسة، مع أننا نجد أن الذين يكونون

حديثي عهدٍ بالثراء يظل فيهم شيء مما يسمى بالإنجليزية (Foppishness) ✪.. أي أنهم يسعون بطريق أو آخر لأن يتظاهروا للناس بثرائهم، فيعرف القوم أن هؤلاء حديثو عهد بالثراء. ولكن الله تعالى يخبر أنكم إذا نظرتم إلى الصحابة فستجدون على وجوههم الغنى، ولن يخطر ببالكم أنهم حديثو عهد بالثراء، بل سيخيَّل إليكم أنهم لا زالوا أهل حكم وثراء نسلا بعد نسل، إذ لن تجدوا فيهم خسةً، فلا يتنازعون على كل صغيرة وكبيرة متظاهرين بثرائهم.

كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا قصة أحد المسلمين الذي تنصَّر فيما بعد، أنه ورث عن أبيه مالا كثيرا، فأنفقه بإسراف وأفلسَ، ومع ذلك كلما نزل من القطار بمحطة لاهور دعا حمّالاً وناولَه منديله، وأمره بأن يتبعه. فسأله حضرتُه ﷺ ذات مرة: ما هذا الذي تفعله؟ إذ ليس معك متاع ولا حقيبة ليحملها الحمّال عنك، فتخرج من جيبك منديلك وتضعه في يده وتأمره أن يأتي وراءك! فقال الرجل: ذلك لأن مكانتي لا تظهر بدون ذلك!

فالذين يجدون الثروة فجأة تفسد أخلاقهم، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن رعاة الإبل هؤلاء عندما يجلسون على العروش، فلن تجدوا في أخلاقهم من وصمة تجدونها عند حديثي عهد بالثراء، بل سيظهر في وجوههم غنى النعيم. وبالفعل، كان الصحابة يعترفون صراحة على الدوام أنهم كانوا فقراء جياعا، لم يجدوا ما يأكلونه، ولكن الله تعالى أعطاهم هذه النعم ببركة إيمانهم بمحمد رسول الله ﷺ. لقد قال لهم مَلِكُ الفُرس مرة: كيف تجاسرتم على شن الغارة على مُلكي وأنتم شعب حقير يأكل الضبّ؟ لو كان هناك غير الصحابة لرد على الملك الفارسي: لقد أهنتَنا بقولك هذا، ولكن الصحابة قالوا له في هدوء تام: قد صدقتَ أيها المَلك، إذ كنا كذلك من قبل، ولكن لم نعُدْ هكذا بعد بعثة محمد رسول الله ﷺ بيننا، بل قد تغيرْنا تماما الآن. (الطبري، سنة أربعة عشرة، ذكرُ ابتداء أمر القادسية)

✪ معناه في العربية: تظاهرٌ وإسراف في اللباس والزينة الغالية غير المنسقة غالبًا، مما يشير إلى أن هذا الشخص ثري ولكنه حديث عهد بالثراء. (المترجم)

فالله تعالى يبين هنا أن غنى النعمة أصبح جزءًا من أنفسهم، فلا يُخفون كالآخرين ماضيهم مخافةَ الإهانة، إذ لا يروْن في ذلك أي إهانة، بل يعتبرونه آية من آيات الله تعالى، فيخبرون الناس حقيقتهم مسرورين.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أنك ترى في وجوههم غنى النعمة، ولن تجد أخلاقهم كأخلاق قوم حديثي عهد بالثراء.

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

رحيق: الرحيق: الخالصُ؛ الخمرُ؛ ضربٌ من الطِيب. (تاج العروس)

مختوم: ختَم يختُم خَتْمًا وختامًا: طبَعه ووضَع عليه الخاتَمَ. ويتعدى أيضا بعَلَى، يقال ختَم الكتابَ وعلى الكتاب. وختَم الشيءَ ختْمًا: بلَغ آخرَه. وختَم الكتابَ: قرأه كلَّه وأتَمَّه. وختَم الصكَّ وغيرَه: وضَع عليه نَقْشَ خاتَمه حتى لا يجري عليه التزويرُ. وختَم العملَ: فرَغ منه. وختَم الإناءَ: سدَّه بالطين ونحوه، وفي القرآن: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾. وختَم الزرعَ وختَم عليه: سقاه أولَ سقية. ختَم الله له الخيرَ: أتمّه. وختَم على قلبه: جعَله لا يفهم شيئا ولا يخرج منه شيء. وختَم الله له الخيرَ: جعَل له عاقبةً حسنة. وختَّمه بمعنى ختَمه، والتشديد للمبالغة. (الأقرب)

التفسير: من معاني المختوم ما ختَمه المرء.. أي بلغ آخره؛ فالمراد من قوله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أنهم سيُسقَون شرابًا راقيا لطيفا مَن شربه لم يتركه حتى يُنهيه.. كلٌّ بحسب ظرفه وقدره. وهذا يبين أن الرحيق المختوم لا يعني الخمرَ المعروفة، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وقوله لاحقا ﴿مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾، حيث بيّن الله تعالى أنه ليس خمرًا ماديةً دنيويةً، بل هو شيء لا بد من نسبته إلى الآخرة. أما إذا اعتبرنا هذا الشيء من نعَم هذه الدنيا، فلا بد أن يراد به ما يشربه الناس كلَّه، ولا يتركون منه قطرة، كلٌّ بحسب ظرفه وقَدْره. وعندي أن المراد من الرحيق هنا نشوة حب الله تعالى التي يولّدها القرآن، فإن عشق الله يخلق في المرء حالة

من النشوة والسكر فيخرُّ على العتبة الإلهية كل حين، شأن الخمر التي تسكر شاربها. والشعراء أيضا قد شبّهوا عيون الحبيب بالمخمرة بكثرة، لأنها تسكر العاشق كما تسكر الخمر شاربها. وقد تبين من ذلك أن الخمر لا تكون مادية فحسب، بل إن سكر المحبة والعشق أيضا يسمى خمرا، ولذلك قال الله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾.. أي أنهم سيُسقَون خمر المحبة.. والمراد منها تعاليم القرآن ومعارفه أو ما بيّنه الرسول ﷺ من أحكام على ضوء القرآن الكريم، وأنهم سيعملون بها مخمورين بنشوة المحبة حتى يبلغوا في عشقهم الذروة.

وكلمة ﴿مختوم﴾ تدل على جودة الشراب، كما تدل على مزايا من يتعاطاها. لقد أعطى الله الأمم السابقة شرائعها، ولكنهم لم يعملوا بها إلا عملاً ناقصًا، فقوم موسى عليه السلام عملوا ببعض شريعته، و لم يعملوا ببعضها، وهذا ما فعل قوم عيسى عليه السلام أيضًا، ولكن أمة محمد رسول الله ﷺ هي تلك الأمة التي حين وضعت الكأس على شفتيها ظلّت تشربها حتى ختمتْ ما فيها.. أي أنهتْ ما فيها.. أعني أنهم عملوا بكل حُكم من أحكام شريعته ﷺ. وكلمة ﴿مختوم﴾ تدل على روعة شريعة القرآن الكريم أيضا، لأن الأحكام التي لا يُترَك العمل بها تكون ملائمة للفطرة الإنسانية تماما، وليست مما لا تطيقها. إن الحُكم الذي لا يطيقه الإنسان يتركه، ولكن قال الله تعالى عن القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾(القمر:١٨).. أي جعلناه سهلاً للعمل به، إذ ليس فيه حُكم ترفضه الفطرة الصحيحة، أو يشق عليها العمل به. فبكلمة واحدة.. ﴿مختوم﴾.. قد أشير إلى محاسن هذا الشرع وأصحابه؛ فمن ناحية أخبر تعالى أنه ليس في القرآن حكمٌ يمكن تركه، بل بوسع الإنسان العمل بكل أحكامه، ولا يمكنه أن يقول إن العمل به محال عليه؛ ومن ناحية أخرى أثنى على الصحابة أيضا، حيث بيّن أن الله تعالى قد وهب لمحمد رسول الله ﷺ أصحابا وخداما إذا وضعوا كأس الشريعة بأفواههم أنهوْها كلها.

والمعنى الثاني للختم هو الطبع.. والشيء المختوم هو ما لا يمكن خلط الشيء فيه، فقوله تعالى ﴿رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ يعني أنه طيّب نقي منـــزّه عن أي شائبة. وهذه أيضا من مزايا القرآن الكريم؛ فإن أكبر أعدائه أيضًا يعترفون – ما عدا الشيعة – أنه منـــزه

عن أي خلط وتحريف.. لم يدخل فيه شيء من خارجه، ولم ينقص شيء من داخله. ذلك أن من مزايا الشيء المختوم أنه لا يدخل فيه شيء من الخارج ولا يخرج من داخله شيء؛ كذلك فإن القرآن كتاب مختوم. عندما نزل القرآن كان النبي ﷺ حيًّا، فما كان لأحد أن يجرؤ على تحريفه؛ ولكن كان هناك خطر أن يتطرق الفساد إليه بعد وفاته ﷺ، فبشّر الله تعالى أنه سيظل مختومًا بعد وفاته ﷺ أيضا. وحيث إن هذه الآيات تتحدث عن إعطاء المسلمين المُلْكَ، حيث أخبر الله تعالى أنه سيأتي زمان يجلس فيه المسلمون على الأرائك ينظرون، لذلك نبّه الله أيضا أنهم عندما ينالون المُلك والحكم والقوة والمنعة بكل أنواعها، فإن القرآن سيظلّ محفوظا عندها أيضا، ولن يقدر أيٌّ من ملوكهم على التصرف فيه. عندما تنال أمةٌ الملكَ في الدنيا، يتمنون عادةً الانغماس في ملذاتها، ولما كانت تعاليم دينهم تحول دون ذلك، فيأخذون في تحريف شرائعهم، ولكن الله تعالى يبشر أن القرآن كتاب مختوم، وسيظلّ كذلك خالصًا نقيًّا تماما في زمن رقي المسلمين، فلن يُنقص منه حُكم ولن يضاف إليه تعليم. لقد تطرق الفساد إلى المسيحيين حين أراد المَلِك الرومي اعتناقَ المسيحية، حيث قال لهم: ليس عندي عذر في اعتناقها، غير أني أرى أن تحتفلوا بيوم الأحد بدلاً من السبت الذي تحتفلون به، لأن قومي يحتفلون بيوم الأحد، فغيّر المسيحيون احتفال السبت إلى الأحد. ثم قال لهم: إن قومي لا يؤمنون بالتوحيد الخالص، فيجب أن تدخلوا في عقيدة التوحيد بعض الاستعارات والكنايات ليسهل على قومي اعتناق المسيحية، فرضوا باقتراحه وقالوا: سنقول من الآن إن هناك الإله الآب، والإله الابن، والإله الروح القدس؛ فدخل المَلِكُ مع قومه في المسيحية. فمع أن المسيحيين أدخلوا هذه الأسماء الثلاثة في عقيدتهم لضم الآخرين إلى دينهم، إلا أنها أخذت مكان الحقيقة بالتدريج، واستبدل المسيحيون عقيدة الآلهة الثلاث بعقيدة الإله الواحد. إذن، فتتسرب أنواع التحريفات في الدين حين ينال الشعب المُلكَ والرخاء والقوة، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن المسلمين حين يجلسون على الأرائك وينالون الحكم والقوة والسلطة، فإن القرآن الكريم سيظل عندها أيضًا كرحيق مختوم، ولن يجرؤ مِلكٌ من ملوكهم على إضافة شيء أو نقص

شيء من أحكامه تحقيقًا لمآربه. وبتعبير آخر قد وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم في زمن ازدهار الإسلام أيضا.

وقوله تعالى: ﴿رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قد تضمن الرد على الشيعة أيضًا، الذين يظنون أن المصحف الحالي ينقصه جزءٌ من القرآن؛ ذلك أن المختوم له مفهومان كما قلتُ؛ أي لا يُدخَل فيه شيء ولا يُنقَص منه شيء، فكيف يصحّ إذن زعم الشيعة عن كتاب مختوم أن جزءًا منه ناقص؟

خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ

شرح الكلمات:

الختام: مصدرُ ختَم يختِم. والخِتام: الفصُّ مِن مفاصل الخيل؛ والمقطَع (من القصيد)؛ والطين يُختتم به على الشيء. (الأقرب)

فالمراد من قوله ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾:

أولا: أن ذلك الشيء يُختَم بالمسك

ثانيا: أن آخره مِسكٌ

ثالثا: أنه يكون مِسكًا حتى نهايته.

التفسير: أول مفاهيم قوله تعالى ﴿خِتامُه مِسْكٌ﴾ أن ختْمه يكون مسكًا، أي أن ما سيوضع على هذا الرحيق لحفظه يكون كالمسك. والبديهي أن مهمة خدمة القرآن وحفظه ظاهريًّا منوطة بالحفاظ والقرّاء؛ أي أنهم خدام القرآن وحَفَظته. وكما أن كلمة (مختوم) تشير إلى أنه لا يدخل فيه شيء من الخارج ولا يخرج من شيء، كذلك فقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يعني أن مهمة خدمة القرآن ستُفوَّض لقوم يفوحون كما يفوح المسك.. أي أنهم يكونون صلحاء من الطراز الأول، يدركون مسؤوليتهم ويحفظون القرآن حق الحفظ. وبالفعل نرى أنه قد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرنًا، ومع ذلك لم تأت خلالها فترة لم يوجد فيها جماعة كبيرة من الحفاظ الخادمين للقرآن. إذن، فقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يتضمن نبوءة بأن

الله تعالى سيقيم لحفظ القرآن ظاهرًا قومًا يتبوءون مقاما عاليا في الورع والتقوى، ويفوحون كما يفوح المسك.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أن آخره يكون مِسْكًا. هناك شيء يرسب دائمًا في قعر إناء الخمر ويسمى دُرْدِيًّا، ومن عادة الأوروبيين أنهم يتركون الخمر بعد صنعها في أوانٍ كبيرة سنةً أو سنتين، وأحيانًا عشر بل خمس عشرة سنة، ليرسب في قعرها الدُرْدِيُّ من دقائق ذرات العنب وغيرها، ثم بعدها يملأون بها القوارير. ولكن لم يكن الأمر هكذا في الزمن القديم عادة، إنما كانوا يسارعون في بيع الخمر بعد صنعها، فكان الدردي يرسب في القارورة. والله تعالى يقول هنا لا شك أن دردِيّ الخمر يكون رديئا، ولكن دُردِيّ القرآن الكريم كالمسك، فما بالكم بكتاب دُرْدِيُّه مسكٌ؟ ما هو الدردي؟ هو ظاهر الشيء؛ لأنه حين تصنع الخمر من العنب أو التمر وغيرهما فإن دقائق ذراتهما ترسب في قعر الإناء، ويبقى فوقها رحيقهما الخالص الذي هو الخمر؛ فثبت أن الدردي ظاهرُ الشيء والخمر رحيقه. وقد أخبر الله تعالى هنا أن دردي القرآن مسك، فالمراد من دُرْديه ظاهرُ أحكامه. والمعنى أن القرآن كتاب ظاهر تعاليمه جيد، كما أن باطن أحكامه جيد أيضا. فلو فحصتم أبسطَ تعاليمه في أية قضية لوجدتموها مسكًا، فما بالكم بتعاليمه الروحانية التي هي من الطراز الأول؟

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أن نهايته أيضا مسكٌ، بمعنى أن بداية القرآن عظيمة كما أن نهايته أيضا عظيمة. ففي البداية قد جاء برسالة الله هذه شخص عظيم كمحمد رسول الله ﷺ، وفي النهاية سيبعث اللهُ لنشرها المسيحَ الموعود عليه السلام في الزمن الأخير. وكأنه تعالى يقول إنها كأس يبدأ الناس بشربها من زمن محمد ﷺ، وسيظلون يشربونها، إلا أنها ستظل مِسْكًا حتى النهاية.. بمعنى أن الله تعالى سيبعث على الدوام أُناسًا يخدمون القرآن وينشرون الإسلام، ثم في الزمن الأخير سيبعث شخصًا ينشر شذى القرآن في العالم كله.

وهناك أمر لطيف جدير بالذكر هنا، وهو أن المسيح الموعود عليه السلام كان يحبّ المسك كثيرًا ويتناوله دائما. فكأن قول الله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ إشارة إلى أنه

سيقيم في النهاية لنشر القرآن الكريم شخصًا يُكثِر من تناول المسك. علمًا أن من سنة الله تعالى أنه يجعل علامة ظاهرة لمعرفة مبعوثه الصادق عادة، ومثاله الآخر علامة ختْم ظاهر جعله الله على ظهر النبي ﷺ بالإضافة إلى ختْم النبوة عليه بمعناها الحقيقي.

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

فليتنافسِ المتنافسون: تنافَسوا في الشيء بمعنى نافسوا. ونافسَ في الشيء منافسةً ونِفاسًا: رغِب فيه على وجه المباراة في الكرم؛ بالغَ فيه وغالى وزايدَ. (الأقرب)

التفسير: إن قول الله هذا يبين بجلاء أن الرحيق المختوم ليس شيئا ماديا، بل روحاني، إذ لو كان ماديًّا، فكيف يقال لشخص لا يقدر على شرب كأس واحدة منه أن يباري الآخرين في شربه؟ إنما يكون التنافس حيث يحاول الواحد سَبْقَ الآخر. فهذا دليل على أن الرحيق المختوم شيء روحاني يمكن أن يتنافس فيه الواحد مع الآخر، وليس شيئا ماديا يُتناول بقدر محدود ولا مجال للتسابق فيه. وحيث إن هذه النعمة الروحانية يمكن أن يتنافس فيها الناس، فقال الله تعالى لو غبطتم الآخرين في خدمات الدين وتسابقتم فيها، فهذا ليس جائزًا فقط، بل هو ضروري.

ومن معاني التنافس التزايدُ والتقدّمُ باضطراد، وعليه فقوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ يعني -بالإضافة إلى معنى سبق الآخرين في الخيرات- أن كل واحد منهم سيسعى ليكون حاضره أفضلَ من أمسه.

إذًا فمعنى المباراة يدعو المؤمنين إلى التسابق، ومعنى التزايد يحثّهم على أن يكون حاضرُ كل واحد أفضلَ من أمسه. ولو وضعوا هذين الأمرين نصب العين لتقدموا بسرعة فائقة.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

مزاجه: مَزَج الشرابَ بالماء مزْجًا ومزاجًا: خلَطه به. (الأقرب)

تسنيم: سنَّم الكلأُ البعيرَ: عظَّم سَنامَه. وسنّم فلانٌ الإناءَ: ملأه. وسنَّم المكيالَ: ملأه ثم عمِل فوقه مثلَ السنام من الطعام. وسنَّم الشيءَ: علاه. وسنَّم القبرَ: ضدُّ سطَّحه. (الأقرب)

التفسير: أي أن الله تعالى سيمدّ كؤوس الخمر هذه بماء الإلهام، لكي يستمتع بها كلّ إنسان من أي زمن، بحسب مزاجه وطبعه. بمعنى أن القرآن خمر بلا شك، إلا أن الخمر يضاف إليها ماء يناسبه، فإذا كانت بحاجة إلى ماء قليل مُزج إليها القليل منه، وإذا كانت بحاجة إلى ماء كثير مُزج إليها الكثير منه. وكأنه تعالى يقول: هذا الرحيق بحاجة إلى تغيير شكله -مع البقاء على أصله- بحسب مختلف العصور ومختلف الأذواق لكي ينتفع به الناس حق الانتفاع. إذن، فقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه سيُنزل في كل عصر ماءَ الإلهامات التي تُمزَج برحيق القرآن حسب حاجة ذلك العصر. فالتسنيم هنا هو ماء الإلهام الذي يُمزَج بالقرآن في كل زمان، وهكذا أخبر الله تعالى أن مكانة القرآن الكريم لا تتجلى كما ينبغي من دون نزول الإلهام المتجدد، وإنما تنكشف عظمته وشأنه وفضله كما ينبغي حين يُمزَج به ماء التسنيم. لا شك أن القرآن الكريم رحيق مختوم، ولكن ستتجدد الضرورات في كل عصر، مما سيتطلب نزول إلهام جديد، فعندها نُنزل وَحْينا وإلهامنا الذي سيكون بمثابة التسنيم للقرآن الكريم.. أي سيتسبب في انكشاف عظمته ورِفعته.

ثم أخبر الله تعالى ما هو التسنيم؛ فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.. أي أنه ينبوع يشرب منه المقربون.

وقد قال البعض عن قوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: الباء هنا زائدة، والمعنى: يشربها. وقال الآخر: الباء هنا بمعنى (مِن)، أي يشرب منها. وقال غيرهما: الباء هنا للحال،

والمعنى: عينًا يشرب ممتزجًا بها المقربون.. أي أنها عين يشرب المقربون الرحيق ممزوجا بها. وقال البعض: الباء هنا وردت بمعناها الأصلي، وهناك حذف والتقدير: عينا يشرب ويلتذّ بها المقربون. (روح المعاني)

فقوله تعالى ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ قد كشف بوضوح أن قوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يشير إلى الإلهام الإلهي، لأن هذه الآية تخبر أن أحكام القرآن ستُعرض على الناس على ضوء إلهام متجدد يترل على المقربين.. أي سيوجد في الأمة المحمدية أُناس على الدوام يتفجر في قلوبهم ينبوع التسنيم، فنتيجة شرب مائه يقومون بتفسير القرآن وشرحه، مما يجعل الناس ينتفعون به في كل عصر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

يضحكون: الضِّحْكُ: انبساطُ الوجه وتكشُّرُ الأسنان من سرور النفس. واستُعير الضحكُ للسخرية، وقيل: ضحكتُ منه. ورجلٌ ضُحَكَة: يضحَك من الناس، وضُحْكَة: لمَن يُضحَك منه، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، ﴿تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ﴾؛ ويُستعمل في السرور المجرَّد. واستُعمل للتعجب المجرَّد تارة، ومِن هذا المعنى قصَد مَن قال: الضّحك يختص بالإنسان، وليس يوجد في غيره من الحيوان. (المفردات)

أستغرب كيف قال صاحب "المفردات" هذا الكلام! مع أن التعجب باد في الحيوانات! فمثلا إذا وضعتَ أمام حيوان شيئًا اقترب منه، وقلَبه بفمه وشَمَّه، فإذا لم يره صالحًا للأكل تنحّى عنه. غير أننا لا نرى حيوانًا يقهقه. نعم، نجد القرد يضحك إلى حد ما.

ثم يقول صاحب المفردات: "ولهذا المعنى قال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾." لقد فسّر صاحب "المفردات" الضحك في قوله تعالى ﴿أضحك﴾ بمعنى التعجب، مع أن هذا المعنى لا ينطبق هنا، لعله أورد هذه الآية هنا خطأ. إنما الآية التي يُستنبط منها معنى التعجب قد ذكرها فيما بعد أعني قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

ثم يقول صاحب المفردات: "وضحكُها كان للتعجب بدلالة قوله ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾. ويدل على ذلك أيضًا قوله ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. وقولُ من قال: حاضتْ، فليس ذلك تفسيرًا لقوله ﴿فضحكتْ﴾ كما تصوّرَه بعض المفسرين."

وأضاف صاحب المفردات أن الشيء الواضحُ البريق يسمى ضاحكًا على وجه الاستعارة، حيث "سُمِّيَ البرقُ العارضُ ضاحكا، والحجرُ يبرُق ضاحكًا، وسُمي البَلَحُ حين يتفتق ضاحكا. وطريقٌ ضَحوكٌ: واضحٌ. وضَحِكَ الغديرُ: تلألأَ من امتلائه." (المفردات)

يتغامزون: تَغامزَ القومُ: أشار بعضهم إلى بعض بأعينهم. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن الذين أجرموا وقطعوا صلتهم عن الله تعالى بسبب معاصيهم سيسخرون من المؤمنين. والحق أنه تعالى قد أشار هنا إلى ما سيؤول إليه المسلمون من ضعف وانحطاط شديدين، حتى يبدو أن رقيهم ثانيةً مستحيل، فيضحك الكفار برؤيتهم، وعندما يقول لهم المسلمون واثقين بوعود الله تعالى إنه سيكتب لهم الرقيّ والازدهار مرة أخرى سيقولون: لقد جُنَّ هؤلاء وفقدوا صوابهم، حيث لا يزالون يحلمون بالحُكم، ويظنون أنهم سيحدثون ثورة عظيمة في العالم ويقيمون نظاما جديدا.

ثم قال الله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾. يشير المرء بالعين إلى صاحبه حين يكون على يقين أن الشخص الثالث مجنون؛ ذلك أن الجنون يجعله يوقن بأنه سينجح ويصبح مَلِكًا، فيعلن بذلك بين القوم، فيلفت بعضهم أنظار بعض إلى المجنون، مشيرين بعيونهم مخافة أن يشتبك معهم إذا تكلموا بشيء من أفواههم.

ولذلك يقول الله تعالى إن هؤلاء الكافرين عندما يرون المؤمنين ويسمعون دعاويهم بإحداث ثورة عظيمة في العالم، يقول بعضهم لبعض مشيرًا بعينه: انظروا لقد جُنَّ هؤلاء.

هذا المشهد يماثل مشهد نوح عليه السلام حين كان يصنع الفلك، وكان أعداؤه يضحكون منه. فلما بدأ نوح عليه السلام بصنع السفينة بأمر الله تعالى، كان الكفار يمرون به فيضحكون منه بأنه مجنون، لذلك يقول الله هنا إن الكفار في الزمن الأخير حين يرون المؤمنين منهمكين في القيام بمهماتهم، ويقول بعضهم لبعض مشيرًا بعينه: انظر ماذا يفعل هؤلاء المجانين؟

وهذه الآية تنبئ أمرًا آخر وهو أن الأمة الغالبة في ذلك الوقت ستبدو متسامحة، وتتظاهر بخلاف ما تخفيه في صدرها، ذلك لأن المرء يتغامز إذا ما رأى أن كلامه سيُعتبر خلافًا للأخلاق. وهذه العلامة توجد في الشعوب الأوروبية بشكل بارز، فإذا تكلمت معهم سيقولون فورًا: أنت مصيب فيما تقول، بينما يعدونه شخصًا مجنونًا. إذن، فالله تعالى بقوله ﴿يتغامزون﴾ قد رسم لنا أخلاق الأوروبيين بأنهم يعملون في الظاهر على عكس ما يضمرونه.

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

فَكِهِينَ: جمعُ فَكِه. فَكِهَ الرجلُ فَكَهًا وفَكاهةً: كان طيّبَ النفسِ مَزّاحًا ضَحوكًا، أو يحدِّث أصحابَه فيُضْحِكهم، فهو فاكِهٌ وفَكِهٌ وفَيكَهانٌ. وفَكِهَ منه: تعجّبَ. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء القوم عندما يرجعون إلى قومهم أو إلى أهليهم يضحكون من المسلمين قائلين: ما أشدَّ هؤلاء غباءً!

وفَكِهَ منه يعني تعجَّب أيضًا، فالمعنى أنهم يتعجبون من المسلمين قائلين: ما أسخفَ هؤلاء وما أشدَّهم حماقةً، إذ يظنون أن تعاليمهم يمكن أن تنتشر في زمن الحضارة والتقدم هذا.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾

التفسير: ضمير (هم) في قوله تعالى ﴿رأوهم﴾ يمكن أن يرجع إلى المؤمنين أو إلى أهل الكافرين.. أي أحيانًا يكتفي الكافرون بالتغامز فيما بينهم برؤية المؤمنين، وأحيانًا لا يتمالكون أنفسهم فيقولون فيما بينهم انظروا إلى هؤلاء الأغبياء الضالين. وإذا أرجعنا الضمير إلى أهل الكافرين، فالمراد أنهم عندما يرجعون إلى قومهم يقولون: لقد رأينا هؤلاء القوم عن كَثَبٍ فوجدنا أنهم هالكون حتمًا، ومن الخطأ أن نعقد عليهم أي أمل للرقيّ، أو نظن أنهم سيُحدثون أي انقلاب طيب في الدنيا. وفي هذه الحالة يكون قولهم السابق خلاف هذا القول.. أي أن هؤلاء يتغامزون فيما بينهم أمام المؤمنين، فمثلاً إذا جاءهم أحد من قساوسة المسيحيين يقول أنتم المسلمون تعملون عملا رائعا، ولكنه عندما يرجع إلى قومه يؤلف كتبًا قاسية ضد الإسلام، ويقول لقومه: إن هؤلاء قوم ضالون.

وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

التفسير: هذه الآية تشير إلى علامة أخرى للشعوب الغربية المسيحية بأنهم يستولون على بلاد الآخرين، وإذا قيل لهم: لماذا تستولون على هذه البلاد؟ يقولون: لقد فعلنا ذلك لحمايتهم. لقد سيطروا على الهند بحجة حمايتها، واستولوا على إفريقيا وغيرها من البلاد بحجة حمايتها. لذلك يقول الله تعالى لم يُرسَل هؤلاء محافظين على الآخرين، فلِمَ يتدخلون في سياسة كل دولة، ويسيطرون عليها بحجة حمايتها؟

الحقيقة أن هذه الآية تتضمن السؤال والجواب معًا، لأن من أساليب القرآن اللطيفة أنه يترك السؤال تارةً ويجيب عليه، وتارةً أخرى يذكر جزءًا من الحديث ويترك الآخر، لأنه مفهوم من السياق. فقوله تعالى ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ جزءٌ من موضوع متكامل، وباقي جزئه محذوف، والمراد لماذا يستولي هؤلاء على بلاد الآخرين مع أن الله تعالى لم يفوّض إليهم مهمة الحفاظ عليها، حتى يجوسوا خلال بلاد الآخرين ويستولوا عليها بحجة حمايتهم، وكأنهم مسيطرون عليهم من عند الله تعالى؟

فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير: فيومئذ يقال: اليوم سينتقم المؤمنون من الكفار على استهزائهم. المؤمن لا يليق به أن يستهزئ أو يسخر من أحد، لأن القرآن الكريم قد عدَّ هذا الفعل جهالة؛ فالمراد من ﴿يضحكون﴾ أنهم ينتقمون منهم على استهزائهم.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٦﴾

التفسير: هنا أعاد الله تعالى الموضوع السابق نفسه وبيّن كيفية انتقامهم جالسين على الأرائك ينظرون، فبيّن أنهم لن ينتقموا منهم انتقامًا سيئًا، بل انتقاما حسنًا. عندما كان الفجار على الأرائك كانوا يرتكبون الظلم، أما هؤلاء فيعدلون وينصفون وهم على الأرائك ينظرون، كي لا يُظلم أحد. علمًا أن قوله تعالى ﴿ينظرون﴾ هنا بمعنى الرقابة.. أي أنهم سيراقبون الأمور كلها جيدًا حتى لا يُظلم أحد.

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ إما متعلق بـــ﴿ينظُرون﴾، والمعنى أنهم ينظرون هل أُعطيَ الكفار جزاءهم كاملا أم لا؛ أو أنه جملة استئنافية، والمعنى:

سيقال لهم: هل ظهرت نتائج أعمالكم أم لا؟ فقد كنتم تظنون أنكم لن تُسألوا عن تطفيفكم وظلمكم، وأن غلبتكم ستستمر إلى يوم القيامة، وأن الدول المسيحية ستظلّ تصبّ الفظائع على الناس كيفما تشاء؛ فأخبِرونا الآن، أجُزيتم على فظائعكم أم لا؟